الإيمان فكيف يخرج إذا لم يدخل ومن القرآن قوله تعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون
ذلك لمن يشاء فالاستثناء بالمشيئة يدل على الانقسام وقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله
فإن له نار جهنم وتخصيصه بالكفر تحكم وقوله تعالى ألا إن الظالمين في عذاب مقيم وقال من جاء
بالسيئة فكبت وجوههم في النار فهذه العمومات في معارضة عموماتهم ولا بد من تسليط
التخصيص والتأويل على الجانبين لأن الأخبار مصرحة بأن العصاة يعذبون بل قوله تعالى وإن
منكم إلا واردها كالتصريح في أن ذلك لا بد منه للكل إذ لا يخلو مؤمن عن ذنب يرتكبه وقوله تعالى
لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى أراد به من جماعة مخصوصين وأراد بالأشقى شخصا معينا
أيضا وقوله تعالى كلما ألقي فيها فوج أي فوج من الكفار وتخصيص العمومات قريب ومن هذه
الآية وقع الأشعري وطائفة من المتكلمين في إنكار صيغ العموم وأن هذه الألفاظ يتوقف
فيها إلى أن ترد قرينة تدل على معناها وأما المعتزلة فشبهتهم قوله تعالى وإني لغفار
لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وقوله والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا
وعملوا الصالحات وقوله تعالى وإن منكم إلا واردها ثم قال ثم ننجي الذين اتقوا وقوله تعالى
ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم وكل آية ذكر العمل الصالح مقرونا فيها بالإيمان وقوله تعالى
ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم وهذه العمومات أيضا مخصوصة بدليل قوله تعالى ويغفر
ما دون ذلك لمن يشاء فينبغي أن يبقى المشيئة في مغفرة ما سوى الشرك وكذلك قوله عليه
السلام يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان وقوله إن الله لا يضيع أجر المحسنين فكيف
يضيع أصل الإيمان وجميع الطاعات بمعصية واحدة وقوله ومن يقتل مؤمنا متعمدا أي لإيمانه
وقد ورد على مثل هذا السبب فإن قلت فقد مال الاختيار إلى أن الإيمان حاصل دون العمل وقد
اشتهر عن السلف قولهم الإيمان عقد وقول وعمل فما معناه قلنا لا يبعد أن يعد العمل من
الإيمان لأنه مكمل له ومتمم كما يقال الرأس واليدان هو الإنسان ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنسانا
بعدم الرأس ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد وكذلك يقال التسبيحات والتكبيرات من الصلاة وإن
كانت لا تبطل بفقدها فالتصديق بالقلب من الإيمان كالقلب كالرأس من وجود الإنسان إذ
ينعدم بعدمه وبقية الطاعات كالأطراف وبعضها أعلى من بعض وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يزني
الزاني حين يزني وهو مؤمن والصحابة ما اعتقدوا مذهب المعتزلة في الخروج عن الإيمان
بالزنى ولكن معناه غير مؤمن حقا إيمانا تاما كاملا كما يقال للعاجز المقطوع الأطراف
هذا ليس بإنسان أي ليس له الكمال الذي هو وراء حقيقة الإنسانية **مسئلة**
فإن قلت فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فإذا
كان التصديق هو الإيمان فلا يتصور فيه زيادة ونقصان فأقول السلف هم الشهود
العدول وما لأحد عن قولهم عدول فما ذكروه حق وإنما الشأن في فهمه وفيه دليل على
أن العمل ليس من أجزاء الإيمان وأركان وجوده بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موجود

والناقص

والناقص موجود والشيء لا يزيد بذاته فلا يجوز أن يقال الإنسان يزيد برأسه بل يقال يزيد
بلحيته وسمنه ولا يجوز أن يقال الصلاة تزيد بالركوع والسجود بل تزيد بالآداب والسنن
فهذا تصريح بأن الإيمان له وجود ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان فإن قلت
فالإشكال قائم في أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة فأقول إذا تركنا المداهنة
ولم نكترث بتشغيب من تشغب وكشفنا الغطاء ارتفع الإشكال فنقول الإيمان اسم مشترك
يطلق من ثلاثة أوجه **الأول** أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من
غير كشف وانشراح صدر وهو إيمان العوام بل الخلق كلهم إلا الخواص وهذا الاعتقاد عقدة
على القلب تارة يشتد ويقوى وتارة يضعف ويسترخي كالعقدة على الخيط مثلا ولا تستبعد
هذا واعتبر باليهودي في صلابته في عقيدته التي لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا تخييل
ووعظ ولا تحقيق وبرهان وكذا النصارى والمبتدعة ومنهم من يمكن تشكيكه بأدنى كلام و
يمكن استنزاله عن اعتقاده بأدنى استمالة أو تخويف مع أنه غير شاك في عقدة كالأول ولكنهما
يتفاوتان في شدة التصميم وهذا موجود في الاعتقاد أيضا والعمل يؤثر في نماء هذا التصميم وزيادته
كما يؤثر سقي الماء في نماء الأشجار ولذلك قال تعالى فزادتهم إيمانا وقال تعالى زدناهم إيمانا وقال تعالى
ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم وكذلك قال فزادهم إيمانا وقوله صلى الله عليه وسلم فيما روي في بعض الأخبار
الإيمان يزيد وينقص وذلك بتأثير الطاعات في القلب وهذا لا يدركه إلا من راقب أحوال نفسه في
أوقات المواظبة على العبادات والتجرد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور وأدرك التفاوت
في السكون إلى عقائد الإيمان في هذه الأحوال حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك
بل من يعتقد في اليتيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلطف به أدرك من باطنه
تأكد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه مقبلا أو ساجدا
لغيره أحس من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها
أعمال الجوارح ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكدها ويزيدها وسيأتي هذا في ربع المنجيات
والمهلكات عند بيان وجه تعلق الباطن بالظاهر والأعمال بالعقائد والقلوب فإن ذلك
من جنس تعلق الملك بالملكوت وأعني بالملك عالم الشهادة المدرك بالحواس وأعني بالملكوت
عالم الغيب المدرك بنور البصيرة والقلب من عالم الملكوت والأعضاء وأعمالها من عالم
الملك ولطف الارتباط ودقته بين العالمين انتهى إلى حد ظن بعض الناس اتحاد أحدهما بالآخر
وظن آخرون أنه لا عالم إلا عالم الشهادة وهي هذه الأجسام المحسوسة ومن أدرك
الأمرين وأدرك تعددهما ثم ارتباطهما عبر عنه وقال رق الزجاج ورقت الخمر
فتشابها فتشاكل الأمر فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر ولنرجع
إلى المقصود فإن هذا العلم خارج عن علم المعاملة ولكن بين العلمين أيضا اتصال وارتباط
فلذلك ترى علوم المكاشفة تتسلق كل ساعة على علوم المعاملة إلى أن تكف عنها
بالتكلف فهذا وجه زيادة الإيمان بالطاعة بموجب هذا الإطلاق ولهذا قال علي رضي الله عنه

اعرض خارجا

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)